آيات أهل الكهف



تفسير القرآن / ابن عربي

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد

ابن عجيبة

إعداد: الفنان : قدرى جاد



تفسير القرآن / ابن عربي (ت 638 هـ) مصنف و مدقق *

{ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً }

أَيّْ:إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء فليس حال أصحاب الكهف آية عجيبة من آياتنا بل هذه أعجب.

واعلم أن أصحاب الكهف هم السبعة الكمل القائمون بأمر الحق دائماً الذين يقوم بهم العالم ولا يخلو عنهم الزمان على عدد الكواكب السبعة السيّارة وطبقها فكما سخرها الله تعالى في تدبير نظام عالم الصورة كما أشار إليه بقوله:{ فَٱلسَّابِقَاتِ سَبْقاً فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً } [النازعات، الآيات: 4-5] على بعض التفاسير وكل نظام عالم المعنى وتكميل نظام الصورة، إلى سبعة أنفس من السابقين، كل ينتسب بحسب الوجود الصوري إلى واحد منهم، والقطب هو المنتسب إلى الشمس،

والكهف هو باطن البدن،والرقيم ظاهره الذي انتقش بصور الحواس والأعضاء إن فسر باللوح الذي رقمت فيه أسماؤهم، والعالم الجسماني

إن جعل إسم الوادي الذي فيه الجبل، والكهف والنفس الحيوانية

إن جعل اسم الكلب، والعالم العلوي إن جعل إسم قريتهم،

على اختلاف الأقوال في التفاسير ومنهم الأنبياء السبعة المشهورون المبعوثون بحسب القرون والأدوار،

وإن كان كل نبيّ منهم على ذكر وهم: آدم وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام لأنه السابع المخصوص.

بمعجزة انشقاق القمر، أي: انفلاقه عنه لظهوره في دورة ختم النبوة

وكمل به الدين الإلهي كما أشار إليه بقوله ﷺ:

" إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض "

إذ المتأخر بالزمان والظهور أَيٌّ:الوجود الحسيّ،هو الحائز لصفات الكلّ وكمالاتهم،كالإنسان بالنسبة إلى سائر الحيوانات،

ولهذا قال ﷺ: " كأنّ بنيان النبوّة قد تمّ

وبقي منه موضع لبنة واحدة، فكنت أنا تلك اللبنة "

وقد اتفق الحكماء المتألهة من قدماء الفرس،أن مراتب العقول والأرواح

على مذهبهم في التنازل تتضاعف إشراقاتها، فكل من تأخر في الرتبة

كان حظه من إشراقات الحق وأنواره وسبحات أشعة وجهه وإشراقات أنوار الوسائط أوفر وأزيد.

فكذا في الزمان، فهو الجامع الحاصر،لصفات الكل وكمالاتهم، الحاوي لخواصهم ومعانيهم،مع كماله الخاص به،

اللازم للهيئة الإجتماعية، كما قال ﷺ .

" بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "

{ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } * { فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً } * { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً }

(إذ أوى الفتْيَة إلى الكهف) أَيٌّ:كهف البدن بالتعلق به { فقالوا }

بلسان الحال { ربنا آتنا من لدُنك } أَيٌّ:من خزائن رحمتك التي هي أسماؤك الحسنى { رحمة } كما لا يناسب استعدادنا ويقتضيه { وهيئ لنا من أمرنا } الذي نحن فيه من مفارقة العالم العلوي والهبوط إلى العالم السفلي، للاستكمال { رشداً } استقامة إليك في سلوك طريقك والتوجه إلى جنابك، أَيٌّ:طلبوا بالاتصاف البدني،

والتعلق بآلات الكمال وأسبابه الكمال العلمي والعملي.

{ فضربنا على آذانهم } أَيٌّ:أنمناهم نومة الغفلة عن عالمهم، وكمالهم نومة ثقيلة لا ينبههم صفير الخفير ولا دعوة الداعي الخبير.

في كهف البدن { سنين } ذوات عدد، أَيٌّ:كثيرة أو معدودة.

أَيّْ:قليلة هي مدة انغماسهم في تدبير البدن وانغمارهم في بحر الطبيعة مشتغلين بها، غافلين عما وراءها من عالمهم إلى أوان بلوغ الأشد الحقيقي، والموت الإرادي أوالطبيعي،

كما قال: " الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا ".

{ ثم بعثناهم } أَيّْ:نبهناهم عن نوم الغفلة بقيامهم عن مرقد البدن، ومعرفتهم بالله وبنفوسهم المجرّدة { لنعلم } أَيّْ:ليظهر علمنا في مظاهرهم،أو مظاهر غيرهم من سائر الناس { أيّ الحزبين } المختلفين في مدة لبثهم وضبط غايته الذين يعينون المدة أم يكلون علمه إلى الله،

فإن الناس مختلفون في زمان الغيبة. يقول بعضهم:
يخرج أحدهم على رأس كل ألف سنة وهو يوم عند الله، لقوله:

{ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } [الحج، الآية: 47].

ويقول بعضهم: على رأس كل سبعمائة عام أو على رأس كل مائة،

وهو بعض يوم، كما قالوا:{ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } [الكهف، الآية: 19]. والمحققون المصيبون هم الذين يكلون علمه إلى الله كالذين قالوا:

{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } [الكهف، الآية: 19]

ولهذا لم يعين رسول الله ﷺ وقت ظهور المهديّ عليه السلام،

وقال: " كذب الوقّاتون "

{ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً } * { هَـٰؤُلآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً }

{ إنهم فتية آمنوا بربّهم } إيماناً يقيناً علمياً على طريق الاستدلال أو المكاشفة { وزدناهم هدى } أَيَّ:هداية موصلة إلى عين اليقين، ومقام المشاهدة بالتوفيق.

{ وربطنا على قلوبهم } قويناها بالصبر على المجاهدة، وشجعناهم على محاربة الشيطان ومخالفة النفس، وهجر المألوفات الجسمانية، واللذات الحسيّة، والقيام بكلمة التوحيد، ونفي إلهية الهوى،

وترك عبادة صنم الجسم بين يدي جبّار النفس الأمّارة من غير مبالاة بها حين عاتبتهم على ترك عبادة إله الهوى وصنم البدن،

وأوعدتهم بالفقر والهلاك، إذ النفس داعية إلى عبادته وموافقته، وتهيئة أسباب حظوظه مخيفة للقلب من الخوف والموت،

أو جسرناهم على القيام بكلمة التوحيد، وإظهار الدين القويم والدعوة إلى الحق عند كل جبّار.

هو دقيانوس وقته كنمرود وفرعون وأبو جهل، وأضرابهم ممن دان بدينهم، واستولى عليه النفس الأمّارة فعبد الهوى،

أو ادّعى لطغيانه، وتمرد أنائيته وعدوانه الربوبية من غير مبالاة عند معاتبته إياهم، على ترك عبادة الصنم المجعول كما هو عادة بعضهم أو صنم نفسه، كما قال فرعون اللعين:{ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي } [القصص، الآية: 38]

و{ أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَىٰ } [النازعات، الآية: 24].

{ هؤلاء قومنا } إشارة إلى النفس الأمارة وقواها، لأن لكل قوم إلهاً تعبده وهو مطلوبها ومرادها، والنفس تعبد الهوى كقوله:{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ } [الجاثية، الآية: 23]، أو إلى أهل زمان كل من خرج منهم داعياً إلى الله،

إذ كل من عكف على شيء يهواه فقد عبده. { لولا يأتون عليهم } أيَّ :

على عبادتهم وإلهيتهم وتأثيرهم ووجودهم { بسلطان بيّن } أيَّ :حجة بيّنة دليل على فساد التقليد، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله،

وتأثيره ووجوده محال، كما قال:

{ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ } [النجم، الآية: 23] أيَّ:اسماء بلا مسميات لكونها ليست بشيء .

(وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً)

(وإذ اعْتَزلتموهم } أيَّ:فارقتم نفوسكم وقواها بالتجرّد.

{ وما يعبدون إلاَّ الله } من مراداتها وأهوائها { فأووا إلى الكهف } إلى البدن لاستعمال الآلات البدنية في الاستكمال بالعلوم والأعمال،

وانخزلوا فيه منكسرين، مرتاضين، كأنهم ميتون بترك الحركات النفسانية والنزوات البهيمية والسطوات السبعية، أَيِّ:موتوا إرادياً .

{ ينشر لكم ربكم من رحمته } حياة حقيقية بالعلم والمعرفة { ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً } كما لا ينتفع به بظهور الفضائل وطلوع أنوار التجليات، فتلتذون بالمشاهدات وتتمتعون بالكمالات كما قال تعالى:

{ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ } [الأنعام، الآية: 122]،

وقال عليه السلام في أبي بكر رضي الله عنه:

" من أراد أن ينظر ميتاً يمشي على وجه الأرض فلينظر أبا بكر " ، أَيِّ:ميتاً عن نفسه يمشي بالله.

أو وإذ اعتزلتم قومكم ومعبوداتهم غيّر الله من مطالبهم المختلفة، ومقاصدهم المتشتتة، وأهوائهم المتفننة، وأصنامهم المتخذة،

فأووا إلى كهوف أبدانكم وامتنعوا عن فضول الحركات والخروج في أثر الشهوات، واعكفوا على الرياضات،{ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ } [الكهف الآية: 16]، زيادة كمال وتقوية ونصرة بالأمداد الملكوتية، والتأييدات القدسية، فيغلبكم عليهم ويهيئ لكم ديناً وطريقاً ينتفع به، وقبولاً يهتدي بكم الخلائق ناجين. وفي المأوى إلى الكهف عند مفارقتهم سر آخر يفهم من دخول المهدي

في الغار إذ أُخرج ونزل عيسى والله أعلم.

وفي نشر الرحمة وتهيئة المرفق من أمرهم عند الأوي إلى الكهف.

إشارة

إلى أنّ الرحمة الكامنة في استعدادهم،

إنما تنتشر بالتعلق البدني والكمال بتهيئاته.

(وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذ ٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً)

{ وترى الشمس } أَيّْ:شمس الروح { إذا طلعت } أَيّْ:ترقت بالتجرّد عن غواشي الجسم وظهرت من أفقه تميل بهم من جهة البدن وميله ومحبته إلى جهة اليمين أَيّْ:جانب عالم القدس وطريق أعمال البرّ من الخيرات والفضائل والحسنات والطاعات. وسيرة الأبرار، فإن الأبرار هم أصحاب اليمين.

{ وإذا غربت } أَيّْ:هوت في الجسم واحتجبت به، واختفت في ظلماته وغواشيه، وخمد نورها، تقطعهم وتفارقهم كائنين في جهة الشمال، أَيّْ:جانب النفس وطريق أعمال السوء فينهمكون في المعاصي والسيئات والشرور والرذائل. وسيرة الفجار الذين هم أصحاب الشمال.

{ وهم في فجوة منه } أَيّْ:في مجال متسع من بدنهم هو مقام النفس والطبيعة، فإن فيه متفسحاً لا يصيبهم فيه نور الروح.

واعلم أن الوجه الذي يلي الروح من القلب موضع منور بنور الروح يسمى العقل وهو الباعث على الخير والمطرق لإلهام الملك والوجه الذي يلي النفس منه مظلم بظلمة صفاتها يسمى الصدر وهو محل وسوسة الشيطان كما قال:{ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ } [الناس، الآية: 5]؛ فإذا تحرك الروح وأقبل القلب بوجهه إليه، تنور وتقوى بالقوة العقلية، الباعثة المشوقة إلى الكمال، ومال إلى الخير والطاعة، وإذا تحركت النفس وأقبل القلب بوجهه إليها، تكدر واحتجب عن نور الروح وأظلم العقل، ومال إلى الشر والمعصية.

وفي هاتين الحالتين تطرق الملك للإلهام والشيطان للوسواس وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وفي الآية لطيفة هي: أنه استعمل في الميل إلى الخير الإزورار عن الكهف، وفي الميل إلى الشر قرضهم،أَيّْ:قطعهم، وذلك أن الروح يوافق القلب في طريق الخير ويأمره به،ويوافقه معرضاً عن جانب البدن، وموافقاته

ولا يوافقه في طريق الشر، بل يقطعه ويفارقه وهو منغمس في ظلمات النفس وصفاتها، الحاجبة إياه عن النور.

وهو إشارة إلى تلوينهم في السلوك، فإن السالك ما لم يصل إلى مقام التمكين وبقي في التلوين،قد تظهر عليه النفس وصفاته فيحتجب

عن نور الروح،ثم يرجع ذلك أَيّْ:طلوع نور الروح واختفاؤه من آيات الله، التي يستدل بها ويتوصل منها إليه وإلى هدايته.

{ من يهد الله } بإيصاله إلى مقام المشاهدة والتمكين فيها، { فهو المهتد } بالحقيقة لا غير { ومن يضلل } بحجبه عن نور وجهه، فلا هادي له ولا مرشد،أو من يهد الله إليهم وإلى حالهم بالحقيقة، ومن يضلله يحجبه عن حالهم .

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } * { وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُواْ أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً } *
{ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوۤاْ إِذاً أَبَداً }

{ وتحسبهم أيقاظاً } يا مخاطب، لانفتاح أعينهم وإحساساتهم وحركاتهم الإرادية الحيوانية { وهم رقود } بالحقيقة في سِنة الغفلة، تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون { ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال }

أَيّْ:نصرفهم إلى جهة الخير وطلب الفضيلة تارة،
وإلى جهة الشر ومقتضى الطبيعة أخرى .

{ وكلبهم } أَيّْ:نفسهم { باسطٌ ذراعيه } أَيّْ:ناشرة قوتيها الغضبية والشهوانية { بالوصيد } أَيّْ:بفناء البدن، ولم يقل: وكلبهم هاجع لأنها لم ترقد بل بسطت القوتين في فناء البدن ملازمة له لا تبرح عنه، والذراع الأيمن هو الغضب، لأنه أقوى وأشرف وأقبل لدواعي القلب في تأديبه، والأيسر هو الشهوة لضعفها وخستها .

{ لو اطّلعت عليهم } أَيّْ:على حقائقهم المجردة وأحوالهم السنية، وما أودع الله فيهم من النورية والسنا، وما ألبسهم من العز و البهاء.
{ لوليت منهم } فارّاً لعدم اعتقادك بالنفوس المجردة وأحوالها، وعدم استعدادك لقبول كمالهم،

أو لوليت منهم للفرار عنهم وعن معاملاتهم
لميلك إلى اللذات الحسيّة والأور الطبيعية

أور: التهيؤ والنفرة، وَمن كَلَام علي رضيَ اللهُ عَنهُ: (فإِنَّ طاعةَ اللهِ حِرْزٌ مِن أوَارِ نيرانٍ مُوقَدَةٍ)

{ ولملئت منهم رعباً } من أحوالهم ورياضاتهم،

أو لو اطلعت عليهم بعد الوصول إلى الكمال وعلى أسرارهم ومقاماتهم، في الوحدة لأعرضت عنهم ،وفررت من أحوالهم وملئت منهم رعباً ، لما ألبسهم الله من عظمته وكبريائه.

وأين الحدث من القدم، وأنى يسع الوجود العدم.

{ وكذلك بعثناهم } أَيِّ:مثل ذلك البعث الحقيقي والإحياء المعنوي بعثناهم { ليتساءلوا بينهم } أَيِّ:ليتباحثوا بينهم عن المعاني المودعة، في استعدادهم الحقائق المكنونة في ذواتهم فيكملوا بإبرازها وإخراجها إلى الفعل، وهو أول الانتباه الذي تسميه المتصوفة اليقظة .

{ قال قائل منهم كم لبثتم } مرّ تأويله، والمحققون منهم هم الذين { قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم فابْعَثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة } هذا هو زمان استبصارهم واستفادتهم واستكمالهم.

والورق هو ما معهم من العلوم الأولية، التي لا تحتاج إلى كسب، إذ بها تستفاد الحقائق الذهنية من العلوم الحقيقية والمعارف الإلهية.

والمدينة محل الاجتماع، إذ لا بد من الصحبة والتربية أو مدينة العلم . من قوله عليه السلام: " أنا مدينة العلم وعليّ بابها "

وإنما بعثوا أحدهم لأن كمال الكل غير موقوف على التعليم والتعلم، بل الكمال الأشرف هو العلمي فيكفي تعلم البعض، عن كل فرقة وتنبيه الباقين ،

كما قال تعالى:{ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوۤاْ إِلَيْهِمْ } [التوبة، الآية: 122].

{ فلينظر أيها أزكى طعاماً } أَيِّ:أهلها أطيب وأفضل علماً، وأنقى من الفضول واللغو والظواهر، كعلم الخلاف والجدل والنحو وأمثالها ،

التي لا تتقوى ولا تكمل بها النفس كقوله:{ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ } [الغاشية، الآية: 7]، إذ العلم غذاء القلب كالطعام للبدن وهو الرزق الحقيقي الإلهي.

{ وليتلطف } في اختيار الطعام ومن يشتري منه أَيّْ:ليختر المحقق الزكي النفس، الرشيد السمت، الفاضل السيرة، النقي السريرة، الكامل المكمل دون الفضولي الظاهري الخبيث النفس، المتعالم، المتصدّر، لإفادة ما ليس عنده ليستفيد بصحبته ويظهر كماله بمجالسته ويستبصر بعلمه فيفيدنا أو ليتلطف في أمره حتى لا يشعر بحالكم ودينكم، جاهل من غير قصد له .

{ ولا يشعرنّ بكم أحداً } من أهل الظاهر المحجوبين وسكان عالم الطبيعة المنكرين، وإن أولنا أصحاب الكهف بالقوى الروحانية فالمبعوث هو الفكر، والمدينة محل اجتماع القوى الروحانية والنفسانية والطبيعية، والذي هو أزكى طعاماً العقل دون الوهم والخيال والحواس، لأن كل مدرك له طعام والرزق هو العلم النظري على كلا التقديرين، ولا يشعرنّ بكم أحداً من القوى النفسانية .

{ إنهم إن يظهروا } أَيّْ:يغلبوا { عليكم يرجموكم } بحجارة الأهواء، والدواعي من الغضب والشهوة وطلب اللذة فيقتلوكم بمنعكم عن كمالكم .

{ أو يعيدوكم في ملّتهم } باستيلاء الوهم وغلبة الشيطان والإمالة إلى الهوى، وعبادة الأوثان وعلى التأويل الأول ظهور العوام، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل المطبوعين، ورجمهم أهل الحق، ودعوتهم إياهم إلى ملّتهم ظاهر، كما كان في زمان رسول الله ﷺ.

{ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً } * { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيۤ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً }

{ وكذلك أعثرنا عليهم } أيّ:مثل ذلك البعث والإنامة أطلعنا على حالهم المستعدّين القابلين لهديهم ومعرفة حقائقهم .

{ ليعلموا } بصحبتهم وهدايتهم { أنّ وعد الله } بالبعث والجزاء.

{ حق وأنّ الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم }
أيّ:حين يتنازع المستعدون الطالبون بينهم أمرهم في المعاد، فمنهم من يقول: إن البعث مخصوص بالأرواح المجردة دون الأجساد، ومنهم من يقول: إنه بالأرواح والأجساد معاً، فعلموا بالاطلاع عليهم ومعرفتهم أنه بالأرواح والأجساد وأن المعاد الجسماني حق، { فقالوا ابنوا عليهم بنياناً } أيّ:فلما توفوا قالوا ذلك كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبنية على الكمل، المقربين من الأنبياء والأولياء كإبراهيم ومحمد وعلى سائر الأنبياء والأولياء عليهم الصلاة والسلام.

{ ربّهم أعلم بهم } من كلام أتباعهم من أممهم والمقتدين بهم، أَيّْ:هم أجلّ وأعظم شأناً من أن يعرفهم غيرهم، الموحدون الهالكون في الله، المتحققون به، فهو أعلم بهم كما قال تعالى:

" أوليائي تحت قبائي، لا يعرفهم غيري "

{ قال الذين غلبوا على أمرهم } من أصحابهم والذين يلون أمرهم تبركاً بهم وبمكانهم، { لنتخذنّ عليهم مسجداً } يصلى فيه.

{ سيقولون } أَيّْ:الظاهريون من أهل الكتاب والمسلمين، الذين لا علم لهم بالحقائق.

وقوله: { رجماً بالغيب } أَيّْ:رمياً بالذي غاب عنهم، يعني: ظنّاً خالياً عن اليقين بعد قولهم: { ثلاثة رابعهم كلبهم } و { خمسة سادسهم كلبهم } وتوسيط الواو الدالة على أن الصفة مجامعة للموصوف ولا تفارقه، وأنه لا عدد وراءه بين قوله: { ويقولون سبعة } وبين { وثامنهم كلبهم }. وقوله: { ما يعلمهم إلا قليل } بعده، يدل على أنّ العدد هو سبعة لا غير،

فالقليل هم المحققون القائلون به وإن أوّلناهم بالقوى الروحانية فهم العاقلتان: النظرية والعملية، والفكر والوهم، والتخيل والذكر، والحسّ المشترك المسمى بنطاسيا،
والكلب النفس والشمس الروح على كلا التأويلين.

ولهذا روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

" إنهم كانوا سبعة، ثلاثة عن يمين الملك وثلاثة عن يساره، والسابع هو الراعي صاحب الكلب " ،

فإن صحت الرواية فالملك هو دقيانوس النفس الأمّارة،
والثلاثة الذين كانوا عن يمينه يستشيرهم هم العاقلتان والفكر،
والثلاثة الذين كانوا عن يساره يستوزرهم هم التخيل والوهم والذكر،
والراعي هو بنطاسيا صاحب أغنام الحواس،

والذين قالوا هم ثلاثة ارادوا القلب والعاقلتين،
والذين قالوا خمسة زادوا عليهم الفكر والوهم وتركوا المدرك للصور
والذكر لعدم تصرفهما وكون كل منهما كالخزانة.

وعلى هذا التأويل فالاطلاع للفئة المحققين من الحضرة الإلهية ،على بقاء النفس بعد خراب البدن، والتنازع، هو التجاذب والتغالب الواقع بين القوى في الاستيلاء على البدن الذي يبعثون فيه وهو البنيان المأمور ببنائه، والآمرون هم الغالبون الذين قالوا: { لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً } [الكهف، الآية: 21] يسجد، أَيٌّ:ينقاد فيه جميع القوى الحيوانية و الطبيعية والنفسانية، والمأمورون هم المغلوبون الفاعلون في البدن المبعوث فيه .

والله أعلم .

---

* تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/ ابن عجيبة (ت 1224 هـ)
مصنف و مدقق .

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً } *

{ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } * { فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً } * { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { أم حَسِبْتَ } أَيِّ:ظننت يا محمد، والمراد: حسبان أمته { أنَّ أصحابَ الكهف } ، وهو الغار الواسع في الجبل. واختُلف في موضعه فقيل: بقرب فلسطين، وقيل: بالأندلس بمقربة من لوشة في جهة غرناطة. وذكر ابن عطية أنه دخل كهفهم، وفيه موتى، ومعهم كلبهم، وعليهم مسجد، وقريب منه بناء يقال له الرَّقِيم، قد بقي موضع جدرانه، وفي تلك الجهة آثار يقال لها: مدينة " دقيوس " ، والله أعلم.

وقال ابن جزي: ومما يُبعد ذلك ما رُوي أن معاوية مرَّ عليهم، وأراد الدخول إليهم ولم يدخل، هيبةً، ومعاوية لم يدخل الأندلس قط، وأيضًأ: فإن الموتى في لَوْشة يراهم الناس، ولا يدرك أحد الرعب الذي ذكر الله في أهل الكهف. هـ.

والمشهور: أن الرقيم هو اللوح المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم، وكان جُعِل ذلك الكتاب في خزانة الملك، وهو لوح من رصاص أو حجر، أمر بكتب أسمائهم فيه لما شكا قومُهم فقْدَهم. وقيل: اسم كلبهم.

أَيِّ:أظننت أنهم { كانوا } في قصتهم { من } بين { آياتنا عَجَبًا } أَيِّ:كانوا عجبًا دون باقي آياتنا، ليس الأمر كذلك.

والمعنى: أن قصتهم، وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجيبة، بالنسبة إلى سائر الآيات التي من تعاجيبها ما ذكر من خلق الله تعالى

على الأرض، من الأجناس والأنواع الفائتة الحصر من مادة واحدة، بل هي عندها كالنزر الحقير.

وقال القشيري: أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم، بما أضاف إلى نفسه بقوله: { من آياتنا } ، وقَلْبُ العادةِ مِنْ قِبَلِ اللهِ غيرُ مُسْتَنْكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ. هـ.
ثم ذكر أول قصتهم، فقال: { إِذْ أوى الفتيةُ }: جمع فتى، وهو الشاب الكامل، أَيِّ:اذكر حين التجأ الفتية إلى الكهف، هاربين بدينهم، خائفين على إيمانهم من كفار قومهم، ورأسهم " دقيانوس " ، على ما يأتي في قصتهم.

{ فقالوا } حين دخلوا الغار: { ربَّنا آتنا من لدُنك } من مستبطن أمورك وخزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن أعين العادات، { رحمةً } خاصة تستوجب الرفق والأمن من الأعداء، { وَهَيِّئ }: أصلح { لنا من أمرنا } الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ومهاجرتهم، { رَشَدًا }: هداية نصير بها راشدين مهتدين، أو: اجعل أمرنا كله رشدًا وصوابًا، كقولك: لقيت منك أسدًا، فتكون من باب التجريد، أو: إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، وأصل التهيئة: إحداث هيئة الشيء.

{ فَضَرَبْنَا على آذانهم } أَيِّ:أَنَمْنَاهُمْ، شبَّه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحَجْب عن الشعور عند النوم لأنها تحتاج إلى الحجب أكثر، إذ هي الطريقة للتيقظ غالبًا.

والفاء في { فضربنا }: مثلها في قوله:{ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ } [الأنبياء: 90]، بعد قوله: { إِذ نادى } ، فإنَّ الضرب المذكور، وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال، والبعث، وغير ذلك، إيتاءُ رحمةٍ لَدُنِّيَّةٍ خفيةٍ عن أبصار

المستمسكين بالأسباب العادية استجابة لدعوتهم، أَيِّ:فاستجبنا لهم وأَنَمْناهم، { فِي الكهف سنينَ عددًا } أَيِّ:ذوات عدد، أو تُعَدُّ عددًا، أو معدودة، ووصْف السنين بذلك: إمَّا للتكثير، وهو الأنسب بكمال القدرة، أو التقليل، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجبًا من سائر الآيات العجيبة فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده تعالى.

{ ثم بعثناهم } أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت، { لنعْلَمَ } علم مشاهدة، أي: ليتعلق علمنا تعلقًا حاليًّا كتعلُّقه أولاً تعلقًا استقباليًّا، { أيُّ الحزبين }: الفريقين المختلفين في مدة لبثهم المذكور في قوله: { قالوا لبثنا يومًا... } الخ، { أحْصَى } أَيِّ:أضبط { لِما لَبِثُوا }: للبثهم،

{ أمدًا } أَيِّ:غاية، فيظهر بذلك عجزهم، ويُفوضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم وأديانهم، فيزدادوا يقينًا بكمال قدرته وعلمه، وليتيقنوا به أمر البعث، ويكون ذلك لطفًا بمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم، وعبرةً لمن يأتي بعدهم، فهذه حِكَمُ إيقاظهم بعد نومهم، والله عليم حكيم.

الإشارة:

عادته تعالى فيمن انقطع إليه بكليته، وآوى إلى كهف رعايته، وآيس من رفق مخلوقاته، أن يكلأه بعين عنايته، ويرعاه بحفظ رعايته، ويُغَيِّبَ سمع قلبه عن صوت الأكدار، ويصون عين بصيرته عن رؤية الأغيار، حين انحاشوا إلى حِمى رحمته المانع، وتظللوا تحت ظل رشده الواسع. وبالله التوفيق. ثمَّ تمم قصتهم فقال: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبأَهُم...

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } * { وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً } * { هَـٰؤُلاۤءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً } * { وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { نحن نقصُّ عليك نبأَهم } ، والنبأ: الخبر الذي له شأن وخطر، قصصًا ملتبسًا { بالحق }: بالصدق الذي لا يطرقه كذب ولا ريبة. وخبرهم، حسبما ذكر محمد بن إسحاق: أنه قد مرج أهل الإنجيل، وظهرت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان مَنْ بَالَغَ في ذلك وعتا عتوًا كبيرًا:

" دقيانوس " فإنه غلا فيه غلوًا كبيرًا، فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد، وقتل من خالفه ممن تمسك بدين المسيح، وكان يتتبع الناس فيُخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمن رغب في الحياة الدنيا الدنية: تبعه وصنع ما يصنع، ومن آثر عليها الحياة الأبدية: قتله وقطع آرابه، وعلّقها بسور المدينة وأبوابها.

فلما رأى الفتيةُ ذلك، وكانوا عظماء مدينتهم، وكانوا بني الملوك، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك

إذ دخل عليهم أعوان الجبار، فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، فخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إن لنا إلهًا ملأ السماواتِ والأرض عظمةً وجبروتًا، لن ندعو من دونه أحدًا، ولن نُقر بما تدعونا إليه أبدًا، فاقض ما أنت قاض، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وأخرجهم من عنده.

زاد في رواية: وضمنهم أهلهم، وخرج إلى مدينة نينوى لبعض شأنه، وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا في أمرهم، وإلاَّ فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين. فأجمعت الفتيةُ على الفرار والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلٌّ منهم من بيت أبيه شيئًا، فتصدقوا ببعضه، وتزودوا بالباقي، فأَوَوْا إلى الكهف.

وفي رواية: أنهم مروا بكلب فتبعهم، على ما يأتي في شأنه، فجعلوا يُصَلُّون في ذلك الكهف آناء الليل وأطراف النهار، ويبتهلون إلى الله - سبحانه - بالأنين والجُؤَار، ففوضوا أمر نفقتهم إلى " يمليخا " ، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان، ويلبس ثياب المساكين، ويدخل المدينة ويشتري ما يهمهم، ويتحسس ما فيها من الأخبار، ويعود إلى أصحابه،

فلبثوا على ذلك إلى أن قَدِم الجبارُ المدينةَ فطلبهم، وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنهم عَصَوْهم ونهبوا أموالهم، وبذروها في الأسواق، وفروا إلى الجبل. فلما رأى " يمليخا " ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكي، ومعه قليل من الزاد، فأخبرهم بما شهد من الهول، ففزعوا إلى الله - عزّ وجلّ - وخروا له سُجدًا، ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون

في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم فناموا، ونفقتُهم عند رؤوسهم.

فخرج " دقيانوس " في طلبهم بخيله ورَجله، فوجدهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يُطق أحدٌ منهم أن يَدخله، فلما ضاق بهم ذرعًا، قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدرتَ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى.
قال: فابْنِ عليهم باب الكهف وَدَعْهم يموتوا جُوعًا وعَطَشًا،
ففعل فكان شأنهم ما قص الله تعالى،

إذ قال: { إِنهم فتيةٌ } ، استئناف بياني، كأن سائلاً سأل عن حالهم، فقال: إنهم فتية شبان كاملون في الفتوة { آمنوا بربهم } ، فيه التفات إلى ذكر الربوبية التي اقتضت تربيتهم وحفظهم، { وزدناهم هُدىً } بأن ثبَّتناهم على ما كانوا عليه، وأظهرنا لهم من مكنونات محاسننا ما آثروا به الفناء على البقاء. وفيه التفات إلى التكلم لزيادة الاعتناء بشأنهم،

{ وربطنا على قلوبهم } أي: قويناهم، حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان، والنعيم والإخوان، واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف ولا حذر، والرد على دقيانوس الجبار
{ إِذْ قاموا } أَيّْ:انتصبوا لإظهار شعار الدين،

قال مجاهد: خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد.
فقال أكبرهم: إني لأجد في نفسي شيئًا، إن ربي هو رب السماوات والأرض، فقالوا: نحن أيضًا كذلك، فقاموا جميعًا{فقالوا ربُنا ربُّ السماواتِ والأرضِ } ، وعزموا على التصميم بذلك.

وقيل: قاموا بين يدي الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام، فحينئذ يكون ما سيأتي من قوله تعالى: { هؤلاء... } الخ: منقطعًا صادرًا عنهم، بعد خروجهم من عنده.

ثم قالوا: { لن ندعوَ من دونه إِلهًا } ، لا استقلالاً ولا اشتراكًا، ولم يقولوا: ربًا للتصميم على الرد على المخالفين، حيث كانوا يُسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبودية على وصف الألوهية. { لقد قُلنا إِذًا شَطَطًا }: قولاً ذا شطط، وهو الجور والتعدي، أَيّْ:لقد جُرنا وأفرطنا في الكفر، وقلنا قولاً خارجًا عن حد المعقول، إنْ دعونا إلهًا غير الله جَزْمًا.

{ هؤلاء قومُنَا } قد { اتخذوا من دونه آلهةً } ، فيه معنى الإنكار، { لولا }: هلا { يأتونَ عليهم}:على ألوهيتهم {بسلطان بَيِّن }: بحجة ظاهرة، { فمن أظلمُ } أَيّْ:لا أحد أظلم { ممن افترى على الله كذبًا } بنسبة الشريك إليه فإنه أظلم من كل ظالم.

{ وإِذ اعتزلتموهم } أَيّْ:فارقتموهم { و } فارقتم { ما يعبدون إِلا الله فَأْووا إِلى الكهف }: فالتجئوا إليه، والمعنى: وإِذا اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقاديًا فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانيًا، { ينشرْ لكم ربُّكم }: يبسط لكم ويوسع عليكم { من رحمته } في الدارين، { ويهيِّئْ لكم من أمركم } الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين، { مِرْفَقًا }: ما ترتفقون به، أَيّْ:تنتفعون، وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم، وقوة وثوقهم بفضل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة:

قد وصف الله - تعالى - أهلَ الكهف بخمسة أوصاف :
هي من شعار الصوفية الإيمان، الذي هو الأساس،

وزيادة الاهتداء بتربية الإيقان إلى الوصول إلى صريح العرفان،
وربط القلب في حضرة الرب،

والقيام في إظهار الحق أو لداعي الوجد،
والصدع بالحق من غير مبالاة بأحد من الخلق.

وقال الورتجبي في قوله تعالى: { وزدناهم هُدىً }: أَيّْ:زدناهم نورًا من جمالي، فاهتدوا به طرق معارف ذاتي وصفاتي، وذلك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد لأن نوري لا نهاية له.

وقال عند قوله: { إِذ قاموا }: قد استدل بهذه الآية بعضُ المشايخ على حركة الواجدين في وقت السماع والذكر لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حرَّكها أنواعُ الأذكار وما يَرِد عليها من فنون السماع. والأصل قوله: { وربطنا على قلوبهم إِذ قاموا } ،

نعم هذا المعنى إذا كان القيام قيامًا بالصورة، أَيّْ:الحسية في القيام الحسي، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية، والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين، فالاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن، إذا كان الربط بمعنى التسكين والقيام بمعنى الاستقامة. هـ.

قلت: الحاصل: أنا إذا حملنا القيام على الحسي ففيه دليل لأهل البداية على القيام في الذكر والسماع. وإذا حملناه على القيام المعنوي، وهو النهوض في الشيء، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية

على السكون وعدم التحرك، وكأنه يشير إلى قضية الجنيد في بدايته ونهايته. والله تعالى أعلم.

وقال ابن لب: قد اشتهر الخلاف بين العلماء في القيام لذكر الله - تعالى - وقد أباحته الصوفية، وفعلته ودامت عليه، واستفادوه من كتاب الله تعالى من قوله - عزّ وجلّ - في أصحاب الكهف: { إِذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السماوات والأرض } ، وإن كانت الآية لها محامل أخرى سوى هذا. هـ.

قلت: وقوله تعالى:{ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً } [آل عمران: 191]: صريح في الجواز.

وقال في القوت: وقد روينا أنه ﷺ مرَّ برجل يظهر التأوه والوجد، فقال مَنْ كان معه: أتراه يا رسولَ الله مُرائيًا؟ فقال: " لا، بل أوّاه منيب " ، وقال لآخر: أظهر صوته بالآية: " أَسْمِع الله عزَّ وجّل ولا تُسَمِّع " ، فأنكر عليه بما شهد فيه، ولم ينكر على أبي موسى قوله: لو علمتُ أنك تَسمع لحبَّرته لك تحبيرًا لأنه ذو نية في الخير وحسن قصد به، ولذا كل من كان له حسن قصد، ونية خير، في إظهار عمل، فليس من السمعة والرياء في شيء لتجرده من الآفة الدنيوية، وهي الطمع والمدح. هـ.

ثمَّ ذكر حالهم في الكهف فقال: { وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ ..

{ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً } *

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً }

يقول الحقّ جلّ جلاله: في بيان حالهم بعدما أووا إلى الكهف: { وترى الشمسَ إِذا طلعت تزَاوَرُ } أَيّْ:تنتحي وتميل { عن كهفهم } الذي أووا إليه، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب.

وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقًا، بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم { ذاتَ اليمين } أَيّْ:جهة ذات يمين الكهف، عند الداخل إلى قعره، { وإِذا غَرَبَت } أَيّْ:وتراها إذا غربت { تَقْرِضُهم } أَيّْ:تقطعهم وتتعدى عنهم { ذاتَ الشمال } أَيّْ:جهته وجانبه الذي يلي المشرق.

وكان ذلك بتصريف الله تعالى على منهاج خرق العادة كرامة لهم.

وقيل: كان باب الكهف شماليًا يستقبل بنات نعش، { وهم في فجوةٍ منه }: في موضع واسع منه، وذلك موقع لإصابة الشمس،
ومع ذلك يُنحيها الله عنهم.

{ ذلك من آيات الله } أَيّْ:ما صنع الله بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها، من آيات الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه.

قال بعضهم: هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف، قلت: كان قبل السد وبعد هدم السد لأنه هُدم بعدُ، فما قام أهل الكهف حتى وجدوه مهدومًا. وظاهر الآية يُرجح من قال: إنه من باب خرق العادة.

{ مَن يَهدِ الله فهو المهتدِ } الذي أصاب الفلاح. والمراد: إما الثناء عليهم، والشهادة بإصابة المطلوب، والإخبار بتحقيق ما أمَّلُوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة، ولكن المنتفع بها هو مَنْ وفقه الله وهداه للاستبصار بها،

{ ومن يُضلل } أَيّْ:يخلق فيه الضلال بصرف اختياره إليه، { فلن تجد له } ، ولو بالغت في التتبع والاستقصاء، { وليًّا }: ناصرًا { مُرشدًا } ، يهديه إلى ما ذكر من الفلاح. والجملة معترضة بين أجزاء القصة.

ثم قال: { وتحسبُهُم } بالفتح والكسر، أي: تظنهم { أيقاظًا } ، لانفتاح أعينهم، أو لكثرة تقلبهم، وهو جمع " يقظ " بظم القاف وكسرها، { وهم رقود } أَيّْ:نيام، { ونُقلِّبهم } في رقودهم { ذاتَ اليمين } أَيّْ:جهة تلي أيمانهم، { وذات الشمال } أَيّْ:جهة تلي شمائلهم لكي لا تأكل الأرضُ ما يليها من أبدانهم.

. قال ابن عباس رضي الله عنه: لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض

قيل: كانوا يتقلبون مرتين في السنة.

وقيل: مرة يوم عاشوراء. وقيل: في تسع سنين. { وكلبهم باسطٌ ذراعيه } ، حكاية حال ماضية أَيّْ:يبسط ذراعيه، وهو من المرفق إلى رأس الأصابع.

{ بالوصيد } أي: بموضع من الكهف، وقيل: بالفِناء من الكهف،

وقيل: العَتَبة. وهذا الكلب، قيل: هو كلبٌ مَروا به فتبعهم، فطردوه مرارًا، فلم يرجع، فأنطقه الله، فقال: يا أولياء الله لا تخشوا إصابتي فإني أُحب أحباء الله، فناموا حتى أحرُسَكم.

وقيل: هو كلبُ راعٍ مروا به فتبعهم على دينهم، ومر معه كلبه، ويؤيده قراءة: وَكَالِبُهُمْ أَيٌّ:وصاحب كلبهم، وقيل: هو كلب صيد لهم أو زرع، واختُلف في لونه قيل أحمر، وقيل: أصفر، وقيل: أصهب.

{ لو اطّلعتَ عليهم } أي: لو عاينتهم وشاهدتهم. والاطلاع: الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة، { لولَّيت منهم فرارًا }: هربًا بما شاهدت منهم، { ولمُلئتَ منهم رُعْبًا } ، أَيٌّ:خوفًا يملأ الصدور برُعبه، لِمَا ألبسهم الله من الرهبة، أو لعظم أجرامهم وانفتاح أعينهم، وكانت منفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم.

وعن معاوية: أنه غزا الروم فمرّ بالكهف، فقال: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى مَنْ هو خير منك، حيث قال: { لو اطلعت عليهم... } الآية، فلم يسمع، وقال: ما أنتهي حتى أعْلَم علمهم، فبعث ناسًا، وقال: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا بعث الله ريحًا فأحرقتهم. هـ.

الإشارة:

للصوفية - رضي الله عنهم - تشبه قويّ بأهل الكهف، في الانقطاع إلى الله، والتجرد عن كل ما سواه، والانحياش إلى الله، والفرار من كل ما يشغل عن الله، والتماس الرحمة الخاصة من الله، وطلب التهيئة لكل رشد وصواب،

ولهذا المعنى ختم الشيخ القطب ابن مشيش تصليته المشهورة

بما دَعَوْا به، حين أووا إلى كهف الإيواء تَشَبُّهًا بهم في مطلق الانقطاع والفرار من مواطن الحس. ولذلك لَمَّا تشبهوا بهم حفظهم الله - أَيّْ:الصوفية - ممن رام أذاهم، وغيّبهم عن حس أنفسهم، وأشهدهم عجائب لطفه وقدرته، ومن تمام التشبه بهم: أنك قلَّ أن تجد فرقة تُسافر منهم إلا ويتبعهم كلب يكون معهم، حتى شهدتُ ذلك في جُل أسفارنا مع الفقراء تحقيقًا لكمال التشبيه. والله تعالى أعلم. ثم ذكر بعثهم بعد نومهم .

**{ وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُواْ أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً } *
{إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوۤاْ إِذاً أَبَداً}**

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وكذلك } أَيّْ:وكما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلاء والتحلل، وكان ذلك آية دالة على كمال قدرتنا، { بعثناهم } من النوم { ليتساءلوا بينهم } أَيّْ:ليسأل بعضُهم بعضًا، فيترتب عليه ما فصّل من الحِكَم البالغة، أو: ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقينًا على كمال قدرة الله، ويستبصروا أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم.

{ قال قائلٌ منهم } هو رئيسهم، واسمه: " مكْسلَيمنيا ": { كم لبثتمْ } في منامكم؟ لعله قال ذلك لِمَا رأى من مخالفة حالهم، لِمَا هو المعتاد في الجملة، { قالوا } أي: بعضهم: { لبثنا يومًا أو بعض يوم } ،

قيل: إنما قالوا ذلك لأنهم دخلوا الكهف غُدوة، وكان انتباههم آخر النهار، فقالوا: { لبثنا يومًا } ، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعدُ قالوا: { أو بعض يوم } ، وكان ذلك إخبارًا عن ظنٍّ غالب، فلم يُعْزَوْا إلى الكذب.

{ قالوا } أَيّ:بعضٌ آخر منهم، بما سنح له من الأدلة، ولِمَا رأى من طول أظافرهم وشعورهم: { ربكُم أعلمُ بما لبثتم } أَيّ:أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله - سبحانه -، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب، { فابعثوا أحَدكم بورقكم هذه إِلى المدينة } ،

أعرضوا عن البحث عن المدة، وأقبلوا على ما يهم في الوقت، والورق: الفضة، مضروبة أو غير مضروبة، ووصْفُها باسم الإشارة يقتضي أنها كانت معينة ليشتري بها قوت ذلك اليوم، وحملها دليل على أن التزود لا ينافي التوكل، وقد كان نبينا ﷺ يتزود لغار حراء ليتعبد فيه.

ثم قالوا: { فلينظر أيُّها } أَيّ:أيُّ أهلها { أزكى طعامًا } أَيّ:أحل وأطيب، أو أكثر وأرخص، { فليأتِكُمْ برزقٍ منه } أي: من ذلك الأزكى طعامًا، { وليتلطف }: وليتكلف اللطفَ في دخول المدينة وشراء الطعام،ة لئلا يُعرف، { ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحدًا } ولا يخبر بكم ولا بمكانكم أحدًا من أهل المدينة، أو: لا يفعل ما يؤدي إلى ذلك.

ثم علل النهي بقوله: { إِنهم إِن يَظْهَرُوا عليكم }: يطلعوا عليكم، أو يظفروا بكم، والضمير: للأهل المقدر في " أيها " ، أَيّْ:إنَّ أهل المدينة إن يظفروا بكم { يَرجُموكم } إن ثبتم على ما أنتم عليه، { أو يُعيدوكم في مِلَّتهمْ } أَيّْ:يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها كرهًا، كقوله تعالى:{ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } [إبراهيم: 13]، وقيل: كانوا على ملتهم ثم خالفوهم للحق.

{ ولن تُفلحوا إِذًا } إن دخلتم فيها، ولو بالكره والجبر، { أبدًا } ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وفيه من التشديد والتحذير ما لا يخفى.

الإشارة:

وكذلك بعثنا مَنْ توجه إلينا من نوم الغفلة والجهالة ليتساءلوا بينهم ليتعرفوا ما أنعم الله به عليهم من اليقظة والنجاة من البطالة، فإذا انتبهوا من نوم الغفلة، استصغروا أيام البطالة لأن أيام الغفلة قليلة أمدادها، وإن كثرت آمادها، وفي الحِكَم: " رب عمر اتسعت آماده، وقَلَّتْ أمداده " ، بخلاف زمان اليقظة، فإنه كثيرة أمداده، وإن قلّتْ آماده، فهو طويل معنىً، وإن قلَّ حسًا،

ولذلك قال في الحِكَم أيضًا: " ورب عمر قليلةٌ آماده، كثيرةٌ أمداده "

وقال أيضًا: " من بورك له في عمره: أدرك في يسيرٍ من الزمان مِنْ مِنَن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة ".

فإن توقفوا على قوت أشباحهم التمسوا أطيبه وأزكاه وأحله، فإنَّ أكل الحلال يُنور القلوب وينشط الأعضاء للطاعة، وتلطفوا في أخذه من غير مزاحمة ولا حرص ولا تعب، فإنْ أطلعهم الله على سره المكنون

من أسرار ذاته بالغوا في إخفائه، حتى لا يُشْعروا به أحدًا من خلقه، غير من هو أهلٌ له لأنهم، إن أظهروه لغيرهم، رجموهم أو أعادوهم إلى ملتهم، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم، ولن يفلحوا إذًا أبدًا. وبالله التوفيق. ثمَّ ذكر اطلاع قوم أهل الكهف عليهم.

{ وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوۤاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وكذلك } أَيّْ:وكما أنمناهم وبعثناهم لازدياد يقينهم { أعْثَرْنا عليهم }: أطلعنا الناس عليهم { ليَعْلموا } أَيّْ:ليعلم القوم الذين كانوا في ذلك الوقت { أنَّ وعد الله } أَيّْ:وعده بالبعث والثواب والعقاب { حقٌّ } صادق لا خُلْف فيه، أو: ثابت لا مرد له لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يُبعث،

{ وأنَّ الساعة } أَيّْ:القيامة، التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعًا للحساب والجزاء، { لا ريبَ فيها }: لا شك في قيامها، فإنَّ مَنْ شاهد أنه جلّ وعلا تَوفَّى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر،

حافظًا لأبدانها من التحلل والفساد، ثم أرسلها كما كانت، لا يبقى معه ريب، ولا يختلجه شك، في أن وعده تعالى حق، وأنه يبعث مَنْ في القبور، ويجازيهم بأعمالهم. وكان ذلك الإعثار { إِذْ يتنازعون }: حين كانوا يتنازعون { بينهم أمْرَهُم } ، في أمر البعث مختلفين فيه .

ففرقة أقرّت، وفرقة جَحَدّتْ، وقائل يقول: تُبعث الأرواح فقط، وآخر يقول: تُبعث جميعُ الأجسام بالأرواح،

قيل: كان ملك المدينة حينئذ رجلاً صالحًا، ملَكها ثمانيًا وعشرين سنة، ثم اختلف أهلُ مملكته في البعث كما تقدم، فدخل الملِكُ بيته وغلق الباب، ولبس مسحًا وجلس على رماد، وسأل ربه أن يظهر الحق، فألقى الله - عزّ وجلّ - في نفس رجل من ذلك البلد الذي فيه الكهف، أن يهدم بنيان فم الكهف، فهدم ما سدَّ به " دقيانوس " بابَ الكهفِ ليتخذه حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله - تعالى - فجرى بينهم من التقاول ما جرى.

رُوِيَ أنَّ المبعوث لمَّا دخل المدينة ليشتري الطعام، أخرج دراهمه، وكانت على ضرب دقيانوس، فاتهموه أنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقص عليه القصة، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينة من مسلم وكافر، فدخلوا عليهم وكلموهم،

ثم قالت الفتية للملك: نُودعك الله ونعيذك به من الإنس والجن، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، فماتوا، فألقى المَلِكُ عليهم ثيابه، وجعل لكل منهم تابوتًا من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجدًا.

وقيل: لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانَكَم حتى أدخل أولاً لئلا يفزعوا، فدخل، فَعُمِّي عليهم المدخل، فبنوا ثَمَّةَ مسجدًا.

وقيل: المتنازَع فيه: أمر الفتية قبل بعثهم، أَيّْ:أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال، .

وعلى التقديرين: فالفاء في قوله: { فقالوا ابنُوا } فصيحة، أَيّْ:أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا، ثم ماتوا، فقال بعضهم: { ابنوا عليهم }: على باب كهفهم { بُنيانًا } لئلا يتطرق إليهم الناس، ففعلوا ذلك ضنًا بمقامهم ومحافظة عليهم. ثم قالوا: { ربهم أعلمُ بهم } ، كأنهم لما عجزوا عن إدراك حقيقة حالهم من حيث النسبة، ومن حيث العدد، ومن حيث بُعد اللبث في الكهف، قالوا ذلك تفويضًا إلى علام الغيوب.

أو: يكون من كلامه سبحانه ردًا لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، { قال الذين غلبوا على أمرهم } ، وهو الملك والمسلمون، وكانوا غالبين في ذلك الوقت: { لنَتَّخِذَنَّ عليهم مسجدًا } ، فذكر في القصة أنه جعل على باب الكهف مسجدًا يصلي فيه.

ثم وقع الخوض في عهد نبينا - عليه الصلاة والسلام - بين نصارى نجران حين قدموا المدينة، فجرى بينهم ذكر أهل الكهف وبين المسلمين في عددهم، كما قال تعالى: { سيقولون ثلاثةٌ رابعُهُم كلبهم } ، وهو قول اليعقوبية من النصارى، وكبيرهم السيد، وقيل: قالته اليهود، { ويقولون خمسة سادِسُهم كلبهُم } ، هو قول النسطورية منهم، وكبيرهم العاقب، { رجمًا بالغيب }: رميًا بالخبر من غير اطلاع على حقيقة الأمر، أو ظنًا بالغيب من غير تحقيق، { ويقولون سبعة وثامنهمْ كلبهم } ، وهو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي، وعدم نظمه في سلك

الرجم بالغيب، وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادةِ تأكيد النسبة فيما بين طرفيها، يَقضي بصحته.

قال تعالى: { قل } يا محمد تحقيقًا للحق، وردًا على الأولين: { ربي أعلم بعدَّتهم } أَيِّ:ربي أقوى علمًا بعدتهم، { ما يعلمهم } أَيِّ:ما يعلم عددهم { إِلا قليلٌ } من الناس، قد وفقهم الله تعالى للاطلاع عليهم بالدلائل أو بالإلهام.

قال ابن عباس رضي الله عنه: " أنا من ذلك القليل " ، قال: حين وقعت الواو انقطعت العدة، وأيضًا حين سكت عنه تعالى ولم يقل: رجمًا بالغيب، علم أنه حق.

وعن علي - كرم الله وجهه -: أنهم سبعة، أسماؤهم: يمليخا، وهو الذي ذهب بورقهم، ومكسيلمينيا، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومشلينا، وفي رواية الطبري: ومجْسَيْسِيا بدله، وهؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش ودبرنوش وجشاذنوس، وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره، و السابع: الراعي الذي تبعهم حين هربوا من دقيانوس، واسمه: كفشططيوش.

وذكر ابن عطية عن الطبري غير هؤلاء، وكلهم عجميون، قال: والسندُ في معرفتهم واهٍ. والله تعالى أعلم.

الإشارة:

عادة الحق تعالى في أوليائه أن يُخْفِيهم أولاً عن أعين الناس، رحمةً بهم إذ لو أظهرهم في البدايات لفتنوهم وردوهم إلى ما كانوا عليه،

حتى إذا تخلصوا من البقايا، وتمكنوا من معرفة الحق وشهوده، أعثر عليهم من أراد سعادته ووصوله إلى حضرته ليعلموا أن وعد الله بإبقاء العدد الذين يحفظ الله بهم نظام العالم في كل زمان حق، وأنّ خراب العالم بانقراضهم، وقيام الساعة لا ريب فيه. وفي الآية تنبيه على ذم الخوض بما لا علم للعبد به، ومدح من رد العلم إلى الله في كل شيء.

والله تعالى أعلم. ثمَّ نهى نبنه عن المجادلة بعد وضوح الحق.

{ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً } * { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً } * { إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً } * { وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعاً } * { قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً }

قلت: { إلا أن يشاء }: استثناء مفرغ من النهي، أَيَّ:لا تقولن في حال من الأحوال، إلا حال ملابسةٍ بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو: في وقت من الأوقات، إلا وقت إن شاء الله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فلا تُمَارِ } أَيّْ:لا تجادل { فيهم } في شأن أهل الكهف { إِلا مِراءً ظاهرًا } قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم، من غير زيادة عليه، مع تفويض العلم إلى الله، فلا تُصرح بجهلهم، ولا تفضح خطأهم، فإنه يُخل بمكارم الأخلاق،

{ ولا تَسْتَفْتِ فيهم }: في شأنهم { منهم } من الخائضين { أحدًا } فإن فيما أوحي إليك لمندوحة عن ذلك، مع أنهم لا علم لهم بذلك.

{ ولا تقولنّ لشيء } أَيّْ:لأجل شيء تعزم عليه: { إِني فاعلٌ ذلك } الشيء { غدًا }: فيما يستقبل من الزمان مطلقًا، فيصدق بالغد وما بعده لأنه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين.

فسألوه ﷺ فقال: " غدًا أخبركم " ، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شقَّ عليه، وكذبته قريشٌ، ثم نزلت السورة بعد أربعة عشر يومًا، أو قريبًا منها، على ما ذكره أهل السِّيَر، أَيّْ:لا تَقُلْ إني فاعل شيئًا في حال من الأحوال إلا متلبسًا بمشيئته على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات، إن شاء الله أن تقوله، بمعنى: أن يأذن لك فيه، فإن النسيان بمشيئته تعالى.

{ واذكر ربكَ } بقولك: إلا أن يشاء الله مستدركًا له، { إِذا نسيتَ }: إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم يحنث. ولذلك جوَّز تأخير الاستثناء. وعامة الفقهاء على خلافه، إذ لو صح ذلك لما تقرر طلاق ولا عتاق، ولم يعلم صدق ولا كذب،

وقال القرطبي: هذا في تدارك الترك والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً به، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه،
أو: اذكر ربك إذا اعتراك نسيان لتستدرك ما فات، وحُمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. وسيأتي في الإشارة بقية الكلام عليها.

{ وقل عسى أن يَهْديَنِ ربي }: يوفقني { لأقربَ من هذا } أَيّْ:لنبأ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي، { رَشَدًا } أَيّْ:إرشادًا للناس ودلالة على ذلك.

وقد فعل عزّ وجلّ ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم وأبين لقصص الأنبياء، المتباعدة أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعمار المستقبلة إلى قيام الساعة.

أو: لأقرب رشدًا وأدنى خيرًا من المَنْسِي، أي: عسى أن يدلني على ما هو أصلح لي من الذي نسيته إذ يجوز أن يكون نسيانه خيرًا له من ذكره إذ فيه إظهار قهريته تعالى، وغناه عن خلقه، وعدم مبالاته بإدبار من أدبر وإقبال من أقبل،

أو: الطريق الأقرب من هذا الذي هدى إليه أهل الكهف رشدًا وصوابًا، وقد فعل ذلك حيث هداه إلى الدين القيِّم الذي أظهره على الأديان كلها، ولو كره المشركون.

{ ولَبِثُوا في كهفهم } أحياءً، مضروبًا على آذانهم،
{ ثلاث مائةٍ سنينَ وازدادوا تسعًا } ،

رُوي عن علي - كرم الله وجهه - أنه قال: عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية، والله تعالى ذكر السنة القمرية، والتفاوت بينهما في كل مائة ثلاثُ سنين، فيكون ثلاث مائة سنة وتسع سنين. هـ.

{ قُلِ الله أعلم بما لَبِثُوا } أَيِّ:الزمان الذي لبثوا فيه. { له غيبُ السماوات والأرض } أي: ما غاب فيهما، وخفي من أحوال أهلها، { أبصِرْ به وأسمعْ } أَيِّ:ما أسمعه وما أبصره. دل بصيغة التعجب على أن سمعه تعالى وبصره خارج عما عليه إدراك المدركين

لأنه تعالى لا يحجبه شيء، ولا يحول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف، والصغير والكبير، والخفي والجلي. والتعجب في حقه تعالى مجاز لأنه إنما يكون مما خفي سببه، ولأنه دهشة وروعة تلحق المتعجب عند معاينة ما لم يعتَدْه، وهو تعالى منزَّه عن ذلك، فيُؤَوَّل بأنه مبالغة في إحاطة سمعه وبصره بكل شيء، كما تقدم.

{ ما لهم من دونه من وليٍّ } أَيِّ:ما لأهل السماوات والأرض من دونه تعالى من ولي يتولى أمورهم وينصرهم إلا هو سبحانه، { ولا يُشرِكُ في حُكمِهِ }: في قضائه في علم الغيب { أحدًا } منهم، ولا يجعل له فيه مدخلاً، وقرئ بالخطاب لكل أحد، أَيِّ:ولا تشرك أيها السامع في حكمه وتدبيره أحدًا من خلقه، فإنه لا فعل له ولا تدبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة:

قد تضمنت إشارة الآية خمس خصال من خصال الصوفية:

الأولى: ترك المراء والجدال، إلا ما كان على وجه المذاكرة والمناظرة في استخراج الحق أو تحقيقه، من غير ملاجة ولا مخاصمة، في سهولة وليونة وسلامة القلوب.

الثانية: استفتاء القلوب فيما يعرض من الأمور

قال ﷺ " اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وإنْ أفتاك المفْتونَ وأفتَوْك، فالبر ما اطمأن القلب وسكن إليه، والإثم ما حاك في الصدر وتردد " ،

والمراد بالقلوب التي تُسْتَفْتَى:

القلوب الصافية المنورة بذكر الله، الزاهدة فيما سوى الله، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق، ولا تسكن إلا إلى الحق، بخلاف القلوب المخوضة بحب الدنيا والهوى، فلا تفتي إلا بما يوافق هواها.

الثالثة: التفويض إلى مشيئة الله وتدبيره، والرضا بما يبرز به القضاء، بحيث لا يعقد على شيء، ولا يجزم بفعل شيء، إلا ملتبسًا بمشيئة الله، فينظر ما يفعل الله، فالعاقل إذا أصبح نظر ما يفعل الله به، والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه، كما قال صاحب الحِكم .

الرابعة: الاشتغال بالذكر والفكر، حتى يغيب عما سوى المذكور قال تعالى: { واذكر ربك إذا نسيت } أَيِّ:إذا نسيت ما سواه، حينئذ تكون ذاكرًا حقيقة، فالذكر الحقيقي: هو الذي يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه لشدة غيبته فيه، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته.

الخامسة: التماس الترقي والزيادة في الاهتداء واليقين، فكل مقام يدركه ينبغي أن يطلب مقامًا أعلى منه، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته، { وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدًا } ، وبالله التوفيق.
ثمَّ أمره بتلاوة كتابه الذي هو أصل كل رشد وصواب .

والله سبحانه وتعالى أعلم.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

{ وصلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ ﷺ وآلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليماً }

تم بفضل الله وحمده

2026/6/ 16

الهرم على بن أبى طالب

راجى كرم الله ورحمته

الفنان:قدرى جاد

وإلى لقاء فى الجزء الثالث عن آيات الكهف

تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن/ روزبهان البقلي (ت 606 هـ)

إن شاء الله تعالى.

